

## القسم الاول

الجذور التاريخية والمعرفية للفكر لفي المادي والمثالي

## بين المادية والمثالية والاسطورة

### النشوء المعقد للفكر الفلسفي المادي والمثالي

ان تاريخ الفكر النظري له خاصيته الذاتية . هذه الخاصية تكمن في عملية تكون معتدة لاتجاهين فلسفيين ، يكتسب كل منهما طابعا متعارضاً مع الآخر بشكل أخذ في العمق والوضوح . هذان الاتجاهان هما المادي والمثالي (١) . انهما لم يتكونا دفعة واحدة كشكلين من اشكال الفكر الفلسفي . فهما قد اجتازا تاريخاً خاصاً بهما ، ولا يزالان يمارسان وجودهما ويتابعان بالتالي سيرهما التاريخي . وقد تم هذا ، ويتم في عصرنا ، ليس بمعنى انهما يضعان لنفسيهما غايات بعيدة وقريبة بشكل قبلي ميتافيزيقي teleologic (٢) . ان الاخذ بهذا الرأي لا ينسجم اطلاقاً مع الوقائع التاريخية الميانية ، بل يقوم على مصادر دينية تنطلق من عملية خلق الهي للتاريخ وللعالَم عموماً . من طرف آخر ينبغي ابراز واقع كون عملية التطور الفكري هذه ، المميزة بتشكيل اتجاهين او ميلين فلسفيين رئيسيين ، لم تأخذ مداها بشكل محايد ، اي دون نزاع . فالمادية والمثالية لم تتطورا بعيداً عن بعضهما

(١) قد يبدو من ناقلة القول ان نشر الى اننا هنا نستخدم ونبحث هذين المفهومين المثالية Idealism والمادية Materialism من حيث هما مفهومان « فلسفيان انطولوجيان » ، وليس من حيث دلالتهما « الاخلاقية moral » . هذا بالرغم من انهما ، كمفهومين فلسفيين انطولوجيين ، يتضمنان في انثاهما نتائج اخلاقية نظرية وموقفا اخلاقيا عمليا .

(٢) teleologisch . ان هيجل يقول بهذه الغائية القبلية الميتافيزيقية . فهو يقرر : « نحن يجب علينا ان نبحث في التاريخ عن هدف عام ، عن هدف نهائي للعالَم ... » (ج.ف.ف. هيجل : العقل في التاريخ - مقدمة لفلسفة تاريخ العالم ، لايبزغ ، دار نشر فلكنس ماينر ١٩١٧ ، ص ٥ ) .

أو الى جانب بعضهما ، بل من خلال بعضهما ، وبشكل خاص ، ضد بعضهما . لقد أكدتا نفسيهما وأرستا قواعدهما ليس من خلال تطور منسجم ناجز ، بل ان النزاعية والعدائية هما ما يميز ذلك التطور . وفي الحقيقة ، ان هذا ، انطلاقاً من جوهر القضية ، ينسجم مع الميل الجوهري الذاتي لكلا الاتجاهين الفلسفيين الرئيسيين ، هذا الميل الذي يمتلك القانونية التطورية الخاصة .

ان هذا يؤكد عليه هنا بالحاح ، لانه ذو أهمية مبدئية بارزة بالنسبة الى القضايا المطروحة في هذا الكتاب .

وبالطبع فاننا ، آخذين بعين الاعتبار هذه الرؤية المنهجية للمضمون الداخلي لتاريخ الفكر الانساني النظري ، سوف نفهم هذا التاريخ على انه تاريخ لقطبين نشأ وتطورا على اساس معطيات الفعالية النظرية والعملية للانسان الاجتماعي . ونحن اذ نقول « قطبين » ، لانعني انهما الوحيدان اللذان يتمتعان بوجود نظري في الدماغ الانساني ، بل الى جانبهما وحولهما تتواجد عناصر « جانبية » . غير ان « قطبية » ذنك القطبين و « جانبية » العناصر تلك ليستا مطلقتين ، بل هنالك علاقة وثيقة متبادلة بينهما ، لها طابع جدلي ، وذلك بمعنى ان العناصر الجانبية لا تزال بعد على طريق نضجها الذاتي واكتسابها هوية واضحة متميزة ، اي أنها لا تزال بعد في طريقها الى أن تتحول الى جزء لا يتجزأ من واحد من القطبين ، بحيث يجري تمثيلها منه ضمن فعالية ذاتية .

والمسألة هذه ، مسألة العلاقة الوثيقة ذات الطابع الجدلي والقائمة بين القطبين والعناصر الجانبية ، تبدى من خلال كون القطبين نفسيهما نتاج تطور طويل وبطيء ومعقد للغاية للعناصر الجانبية . ولكن هذا لايعني أنهما يفهمان فقط من زاوية كونهما نتاج ذلك التطور ، ذلك لأن وجود العناصر الجانبية المتناقضة بشكل خفي وجوداً نسبي تماماً وهذا يرتد الى أنها تقوم على علاقة وجودية ( انطولوجية ) عميقة مع القطبين المومي اليهما ، والى أنها ، من حيث مضمونها الميلتي *tendentious* (١) الجوهري ، تخص الواحد أو الآخر من القطبين ، كما هو الحال مثلاً بالنسبة الى اللادرية *Agnosticism* (٢) بموقعها من المادية والثالية . فهذه ، اي اللادرية .

---

(١) *tendenzioes* (٢) *Agnostizismus*

تبدو ظاهرياً وكأنها تشكل قطاعاً خاصاً متميزاً عن المادية وعن المثالية .  
الإثبات ، في حقيقة الأمر ، ما هي إلا نمو طبيعي للفكر الفلسفي المثالي .  
وظهورها كشيء بجانب - جانبي - للمادية والمثالية اللتين تشكلان القطبين  
المتميزين ، لا يخفي حقيقتها القائمة على علاقة داخلية مع المثالية .

### الفكر اليوناني الفلسفي والتطور الفلسفي اللاحق

ان انجلز حينما يقول « بأنه في الأشكال المتعددة للفلسفة اليونانية  
توجد ، مسبقاً ، تقريباً كل أساليب الرؤية اللاحقة بشكل بدري أولي » (١) ،  
فإن هذا لا ينبغي أن يفهم بمعنى أن التطور الأساسي للفكر النظري  
اقتصر على العصر اليوناني النهجي ( الكلاسيكي ) ، وأنه بالتالي سوف يظل  
هكذا ، بحيث أنه لن يجري إنجاز شيء جوهري في هذا المجال بعد العصر  
ذاك ، أو أنه ، بشكل محدد ، لم ينجز شيء جوهري في هذا الاتجاه . إن  
رأياً مثل هذا يشبه ولا شك رأي هيجل الصوفي ، الذي يتوجب من خلاله  
على « العقل العالمي » أن يجد مرحلته القصوى في نظام هيجل الفلسفي  
نفسه . بالطبع ، حين تعطى المسألة هذا الإطار الصوفي ، فإنها تكون قد  
افتقدت عنصراً جوهرياً ، هو إمكانية حلها حلاً متطابقاً مع معطيات التقدم  
العلمي والاجتماعي الإنساني .

ونحن إذ إوردنا ما تقدم ، فإننا لم نطمح بذلك إلى أن نشير إلى  
النوعيات الجديدة في الفلسفة الحديثة أو المعاصرة ، بل إن المسألة تدور هنا  
حول اكتشاف وتعريف وعرض الجوانب الجديدة نوعياً في تطور الفكر الفلسفي  
لدى الفلاسفة الإسلاميين العرب ، تقريباً من القرن الثامن حتى القرن الثاني  
عشر ، وخصوصاً فيما يتعلق بالميل المادي في أنظمتهم الفلسفية . ومن خلال إنجاز  
هذه المحاولة سوف نكتسب اليقين بأن الاستمرارية Continuity (٢)  
في التطور النظري الإنساني بمجموعه لا تنفي ولا تستنفد الاستمرارية  
Discontinuity (٣) النوعية الخاصة ، المتمثلة بوحدة من فترات ذلك التطور .  
إننا سوف نحاول البرهان بدقة وثائقية ووضوح نظري ما أمكن ، في مجرى  
هذا الكتاب ، على أن تينك اللحظتين أو المنحيين ( أي الاستمرارية  
واللااستمرارية ) في التطور النظري المعني يشكلان وحدة جدلية عميقة

(١) F. Engels مقدمة قديمة لـ « ضد ديرنغ » - حول الجدل . في كتاب « ضد ديرنغ »

دار نشر ديتز ، برلين ١٩٥٦ ، ص ٤١٤ .

Kontinuitaet (٢) . Diskontinuitaet (٣)

نسبية ، لا يمكن بمعزل عنها فهم واستيعاب تاريخ الفلسفة في خطه العام وفي دقائقه وتفرداته فهماً واستيعاباً علميين عميقين .

أن تكون أساليب الرؤية الفلسفية اللاحقة على الفلسفة اليونانية قد وجدت تعبيرها الاولي مسبقاً في هذه الفلسفة ، لا يعني اطلاقاً القول بتتابع للفلسفة اليونانية قائم على نفي منعطفات نوعية فلسفياً . انه لا يعني القول بتطور مستقيم . ان التطور النظري الفكري ، كأي تطور آخر ، يتم ، منظوراً اليه من خلال ميله ومضمونه ، ليس فقط كمياً ، وانما أيضاً نوعياً . بيد أن خاصية التطور النظري الفكري الموهلة في التجريد يمكن أن تثير الاعتقادات بانها - بسبب الاستقلالية Independence (١) النسبية التي تتمتع بها تجاه الواقع الخارجي الموضوعي والتي اكتسبتها على مر الحقب التاريخية، كما وبسبب التأثير الملحوظ للتقليد Tradition (٢) المستمر داخل التطور النظري الفكري ذلك - تمثل بشكل جوهرى استمرارية ذات منحنى مستقيم . لكن هذا الرأي يبقى فاقد الاساس العلمي ومتعارضاً مع الوقائع التاريخية العيانية .

ان نتائج ابحاث في الحقول النظرية والتجريبية والاجتماعية السياسية والاقتصادية ، وان كانت حتى الآن قليلة، تقدم مادة كافية كبرهان واضح على وجود منعطفات نوعية في تاريخ الفكر النظري لدى الشعوب المختلفة ، ومن ضمنها ولا شك ، الشعوب العربية الاسلامية في العصر الوسيط .

ان هذه الرؤية المادية الجدلية لخاصية وطابع التطور أو التقدم الفكري النظري تقف في تعارض حازم مع تلك التي ترى هذا التطور على انه تاريخ خطأ ( أو ضلال ) ملء بالمغزى . ان J. Petzoldt ، الذي ينطلق من هذا الفهم لتاريخ الفكر ، يرى الخطأ ذلك ممثلاً بمفهوم الجوهر (٣) . ونحن حيث نحاول تجنب طرح هذه المسألة بشكل جزئي مبتور ، كما يفعل ممثلو الرأي السابق ، بل نطمح الى طرحها تاريخياً عيانياً concrete (٤) ، فإنا نجد ان قضايا نشوء وتطور الفكر النظري لدى اليونانيين القدماء ولدى العرب في العصر الوسيط وكذلك التجارب الاجتماعية العملية بشكل عام تبين أن سلوك وتفكير الانسان الواقعيين - بالمعنى الاولي البدائي للمادية - والمتجهين

Tradition (٢) Selbstaendigkeit (١)

(٣) انظر كتاب J. Petzoldt : قضية العالم، الطبعة الثانية - لايبزغ وبرلين ١٩١٢ .  
(٤) konkret

نحو الاشياء وعلاقتها استطاعا تأكيد وجودهما فقط حيث نشبت بينهما وبين العنصر الاسطوري المثالي ، الأخذ بالتكون والتطور الى جانبهما ، نزاعات وتناقضات ضرورية .

### عنصران في تحديد العلاقة البدائية بين « المادية والمثالية »

هنا يتوجب الكشف عن عنصرين أساسيين ، أساسيين انطلاقاً من العلاقة التاريخية الأولية الاصلية . أما العنصر الاول فانه يقوم على الرابطة الأولية البدائية بين « المادية » و « المثالية » ، هذه الرابطة التي تأخذ شكل وطابع الاسطورة Myth (١) . ان هذه الفرضية ، كما سنرى في هذه الدراسة القصيرة حول الخطوات الاولى لنشوء الفكر المادي والفكر المثالي ، سوف يكون ثقلها والأخذ بها في خطوطها الاساسية العامة اكثر معقولة واقتراباً من الموقف العلمي من رفضها .

ففي البدء نجد رابطة أولية توحد نسبياً بين بدور الاتجاهين الفكريين المومي اليهما فوق . بيد انه من الضروري التأكيد على أن الحديث هنا يدور بالضبط حول البدور الاولى الجتينية للمادية والمثالية ، هذه البدور التي وجدت تعبيرها بشكل جوهري في الموقف العملي المباشر للانسان تلقاء العالم المادي وتلقاء ذاته هو نفسه . غير أن هذا ينبغي أن يفهم بمعنى أنه لا يمكن التحدث هنا بعد عن تناقض متميز بين الميل المادي والآخر المثالي على الصعيد النظري theoretic (٢) في تلك المرحلة التاريخية البدائية . الا انه يمكن ، بل يجب التحدث في هذا الاطار عن وجود حد أدنى من التفكير « النظري » . ذلك لأن العامل الحاسم في عملية الانتقال او الانفصال النهائية للكائن الانساني عن العالم الحيواني قد كمن في نشاطية وفعالية هذا الكائن المكتسبة اجتماعياً ، والتي تبلورت في صنع واستعمال أدوات عمل وفي خلق وسيلة مشتركة للتفاهم ، أي في تكوين لغة .

ان هذا ، تاريخياً ، مفهوم بداته ، فعلى أساس المستوى البدائي للقوى المنتجة ( الانسان نفسه وأدوات العمل المستعملة ومنشأته واماكنه وتوابعه ) في تلك العهود ، وكذلك انطلاقاً من سيطرة الملكية العامة للقوى المنتجة ولوسائل الاستهلاك ، كان الناس آنذاك قادرين على الإبقاء على حياتهم فقط حيث كانوا ينتجون ويستهلكون بشكل جماعي . وقد اشترط هذا بطبيعة الأمر وجود لغة معينة مشتركة .

theoretisch (٢) Mythos (١)

ان هذه الفعالية الانسانية الضرورية اطلاقاً والمزدوجة ، أي الانتاج المادي والتفاهم اللغوي المشترك ، كان قد توجب عليها أن تتضمن في نفس الآن لحظة معينة من الوعيية Consciousness (١) . ذلك لأن الوجود الواقعي لاناس ذلك العصر البدائي استطاع تحقيق ذاته ، من حيث هو واقعي فعلاً ، فقط ضمن اطار واتجاه محددين قائمين على قدرة اولئك الناس على استيعابهم وسيطرتهم على محيطهم Environment (٢) ذهنياً وعملياً بقدر ومستوى ضروريين .

وهكذا ففي الانسان ، من حيث هو جوهر اجتماعي صانع للأدوات ، يكمن بشكل ضروري وتلقائي حد أدنى من « التفكير النظري » . بهذا المعنى وضمن هذا الاطار من فهم القضية نجد هذا « التفكير النظري » صفة فطرية خاصة بالانسان (٣) .

في وضع اجتماعي بدائي لا تنتج فيه ، بشكل أساسي ، قيم للتبادل والعرض والطلب وانما فقط قيم للاستعمال والاستهلاك ، كحد أدنى لحفظ البقاء ، يكون الوعي Consciousness (٤) « بالطبع وبالدرجة الاولى فقط وعياً للمحيط الحسي القريب nearest (٥) وعياً للعلاقة البدائية مع اشخاص واشياء اخرى ما عدا ( خط التأكيد مني : ط.ت ) مع الفرد الصائر على طريق وعي ذاته ... » (٦) . ان الوعي الخاص بالضرورة المباشرة ، أي وعي القطعان Herds (٧) ، ملتحم الى حد كبير بالعالم المادي المحيط والمباشر . نقول هنا « الى حد كبير » لتؤكد على أن ذلك الالتحام لم يكن « كلياً » ، والا لامتنع القول بوجود « ذات انسانية » و « موضوع مادي » . كما أن الطبيعة والمجتمع لم يكونا في الاعتبار الاول بالنسبة الى الانسان ، المتضمن ذلك الوعي القطيعي ، الا شيئاً واحداً متجانساً .

بهذا القدر وفي هذا الاتجاه كان ذلك الوعي وعياً موضوعياً Objective (٨) .

Bewusstheit (١) Umwelt (٢)

(٣) انظر : ف. انجلز - مقدمة قديمة لـ « ضد ديرنغ » - حول الجدل . في كتاب « ضد ديرنغ » ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٤١٠ .

Bewusstsein (٤) Naechste (٥)

(٦) ك. ماركس و ف. انجلز : الايديولوجية الالمانية . نشر في : ماركس - انجلز . المؤلفات ، المجلد ٣ ، دار نشر ديتشر ، برلين ١٩٥٦ ، ص ٣١ .

Herden (٧) Objektiv (٨)

ذلك لانه اكتسب وجوده ، كما سبق وقيل ، من خلال كونه وعياً للعلاقة البدائية مع ناس واشياء أخرى ماعدا مع الفرد السالك طريق وعي ذاته . لكن موضوعية ذلك هي في الوقت نفسه نسبية relative (١) ، وذلك لان الوعي الانساني هو دائماً وفي مجموع الاحوال ذاتي subjective (٢) . هذا يعني أن الناس ، حتى في أوضاعهم الاكثر بدائية ، لم يمارسوا وجودهم في هوية Identity (٣) مطلقة مع محيطهم ، لذلك فالكل والجزء لم يستوعبا من قبلهم اطلاقاً كشيء واحد ، بل جرى التمييز بينهما بقدر ما .

ضمن هذا الاطار الضيق للوجود الضروري لحدٍ أو قدر ما من الفعالية « النظرية » Theorize (٤) لدى الانسان البدائي ، تنسم العنصر المادي ( الواقعي ) والعنصر المثالي ( اللاواقعي أو الماورائي ) خيوط وجودهما الاولي وتحركا ، ولكن ، بعد ، ليس في شكل تناقض متميز بوضوح ضمن ذلك الوعي .

هذا ما يخص العنصر الاول في قضيتنا . وهو يقوم ، كما تبين ، على تحديد العلاقة الاولية ، البدائية بين « المادية و » المثالية ، التي تتحقق في « الاسطورة » ومن خلالها .

**اما العنصر الثاني** فانه يستبين من خلال ديالكتيك الرؤية لتلك العلاقة البدائية الاصلية ، وذلك على أساس من أن هذه العلاقة توجد في سيرورة وتحول دائمين ، وأن ميل Tendency (٥) هذه الصيرورة وهذا التحول يقوم على عملية تشكل ونمو قانوني regular (٦) للعنصر المادي من الطرف الاول وعلى اقضاء العنصر المثالي من الطرف الآخر .

ولقد وضعت الفعالية العملية للانسان ، اي العمل ، الحجر الأساسي لنشوء الاسطورة ، وفي نفس الوقت لانحلالها الى العنصر المادي ( الواقعي ) والعنصر المثالي ( اللاواقعي أو الماورائي ) . والجدير بالملاحظة العميقة انه في عملية الانتاج Process of Production (٧) ذاتها انبعث ذلك الفكر «النظري» البدائي ، اي الاسطورة ، واكد ذاته . انه نشأ كرد فعل ذهني تلقائي على المثيرات الحسية المسببة عن العلاقات بين الانسان ومحيطه ، هذه العلاقات التي يكمن مبعثها ، هي بالتالي ، في أعمال الانسان أدوات عمل بدائية ،

---

Identitaet (٣)	Subjektiv (٢)	Relativ (١)
Gesetzmaessig (٦)	Tendenz (٥)	Theorethisieren (٤)
		Produktions prozess (٧)



ذات آفاق ضحلة ، في محيطه الخارجي المحدود .

ضمن هذا الحقل وبهذا الحد استطاعت « الاسطورة » انجاز وظيفتها .  
التي قامت على التوجيه Orientation (١) الضروري الهادف قليلاً أو كثيراً  
للإنسان تجاه الأشياء الخارجية المعطاة وعلاقتها الموضوعية . وفي الحقيقة ،  
استطاع الإنسان كسب حياته المادية ، حيث تمكن ، ولو بالحد الأدنى ، من  
تحويل العالم الموضوعي الخارجي الى موضوع Object (٢) له ، من  
حيث هو ذات Subject (٣) فعالة عملياً .

ومن خلال الفعل الواعي أكثر فأكثر والخاص بالإنسان ، هذا الفعل  
الذي يكتسب ، من خلال استخدام أدوات العمل وبالتالي من خلال التأثير  
على العالم الخارجي ، لامباشرة Indirection (٤) تنحو باتجاه تعميق ذاتها  
أكثر فأكثر ، من خلال ذلك الفعل يعيد الإنسان ذهنياً تركيب ذلك  
العالم ثم يوضعه ثانية . ان هذه العملية ، المنشطرة الى شقين والموحدة  
في نفس الوقت ، تميزت بكون الإنسان قد لجأ الى تمديد مقاييس وخصائص  
جسده ونفسه على المحيط المادي الخارجي ، وبكونه - في اتجاه معاكس -  
قد عمل على تمديد مقاييس وخصائص المحيط ذلك عليه نفسه . وقد فعل  
هذا بدافع من حاجاته الحياتية المادية المباشرة ، التي لم يكن تحقيقها ممكناً  
الا من خلال اقتراب معمم من العالم المادي ، أي من خلال النفاذ الى هذا  
العالم بقانونياته الخاصة وتحويل ذلك الى موقف عملي منه (أي من العالم) .

هذه العملية الجدلية بين الإنسان والعالم المحيط به يمكن فهمها اذن  
على أنها في نفس الوقت توضع Objectification (٥) للإنسان وتديت  
Subjectification (٦) للعالم المادي المحيط أو أحياءه - بمعنى اضفاء الحياة  
الإنسانية عليه - . ولا شك ان هذا قد كان ، ضمن الأطر التاريخية التي  
وجد فيها ، عملية واقعية ايجابية ذات مضمون فكري ، تكمن وظيفته ،  
بشكل أساسي ، في تمثل ذلك الموضوع ذهنياً والسيطرة عليه عملياً .

ان هـ . وهـ . ا . فرنكفورت ، اللذين يستشهدان بـ « كرولي » حيث  
يقول « ليس للإنسان البدائي الا اسلوب واحد للتفكير ، واسلوب واحد  
للتعبير ، واسلوب واحد للكلام - الاسلوب الشخصي » ، يفسران قوله هذا  
بتأكيدهما كما يلي : « وهذا ليس معناه ( كما يحسب الكثيرون ) ان

---

Subjekt (٣)	Objekt (٢)	Orientierung (١)
Subjektivierung (٦)	Objektivierung (٥)	Unmittelbarkeit (٤)

الانسان البدائي ، حين يحاول تفسير الظواهر الطبيعية ، يفتقد على عالم الجماد صفات انسانية . ان الانسان البدائي لا يعرف عالماً جماداً أبداً . ولهذا السبب عينه ، لا « يشخص » ظواهر الجماد ، ولا يملا عالماً فارغاً باشباح الموتى ، كما تريدنا « الروحانية » ان نعتقد . « (١) »

على هذا التفسير لقول كرولي السابق نرى ضرورة التعليق بما يلي :

١ - من الضروري التمييز بين الاحيائية او الحياتية وبين الروحانية ، ذلك لأن الأولى سادت الفترة الأولى من حياة الانسان ، وهي العصر الحجري القديم . في هذه الفترة نشأ الشكل الاول للمجتمع الانساني ، الممثل بمجتمع القطيع ونشأ معه الوعي الانساني البدائي ، ووعي القطيع ، والوعي القطيعي . كان انسان ذلك العصر يرى في الظواهر الطبيعية ينابيع قوة حية . فهو لم يضعف هذه الظواهر ، أي انه لم يضيف اليها قوى أخرى ماورائية . وذات طبيعة روحية . انطلاقاً من هذا الواقع التاريخي تبرز حقيقة أساسية بالنسبة اليها ، وهي ان وعي الانسان الاول سابق على الوعي الديني ، اللاواعي ، وبالتالي المهد للفكر المثالي اللاحق . بهذا نود القول أن الانسان البدائي ، المتوحش ، لم يلجأ الى اغداق صفات ماورائية على الطبيعة المحيطة به ، بل اشدق عليها الكثير من صفاته نفسه (٢) ، بشكل استحالت فيه الى قوى انسانية حية يتعايش معها عبر الادوات الحجرية البدائية .

٢ - ان هـ . وهـ . ا . فرانكفورت من خلال رأيهما بأن الانسان البدائي لا « يفتقد على عالم الجماد صفات انسانية » ، حين يحاول تفسير الظواهر الطبيعية ، لا يدركان حقيقة العملية الجدلية التي تتم بين الانسان ذاك والظواهر الطبيعية المحيطة به . فمما لا سبيل للشك فيه أن وجود الانسان البدائي قد ارتبط بالضرورة بتلك العملية ، التي كمنت في أنسنة تلك الظواهر من قبله ، أي في تحويل الطبيعة الى موضوع انساني ، ولو بحدود دنيا . وإلا فوجوده ، ببساطة ، كان عرضة للهلاك . لقد كان عليه أن يتآخى مع الطبيعة ، أن ينظر اليها ، من حيث هي عضوية شبيهة

---

(١) هـ . فرانكفورت ، هـ . ا . فرانكفورت ، جون ا . ولسن ، توركيلد جاكوبسن : ما قبل الفلسفة - ترجمة جيرا ابراهيم جيرا ، منشورات دار مكتبة الحياة - ( فرع بغداد ) ١٩٦٠ ص ١٦ .

(٢) انظر حول ذلك بحثا لـ G.A. Gurew ، نشر في كتاب : الفلسفة والمجتمع - اصدار ف . بغوه وهـ . شولتسه ، دار نشر الاكاديمية ، برلين ١٩٥٨ ، وبشكل خاص الصفحات ٤٨٠ - ٤٨٢ .

بعضويته . وبالطبع كان هذا ، في الوقت الذي تم فيه من خلال الفعالية  
الأولية والمحدودة للإنسان ، يتحقق دون استيعاب ذهني ( فهمي ) قائم  
على استمرارية زمنية طويلة . وفي هذا المفترق من الطرق نجد هـ . وهـ . ا .  
فرتكفورت يتعرضان لمسألة الزمان والمكان في الدهنية الاسطورية ، بشكل  
يسلب تأكيدهما السابق ، حول عدم اغداق الإنسان البدائي صفات انسانية  
على محيطه ، صحته ، وذلك حيث يكتبان : « والفكرة الميثوبية من (الزمان) ،  
كاختها عن ( المكان ) ، كيفية ومجسمة ، لا كمية ومجردة . ان الفكر الميثوبي  
لا يعرف الزمان كبقاء متساوق ، او كتعاقب لحظات متماثلة الكيفية .  
فالإنسان الاول . . . لم يعرف فكرة الزمن التي تشكل اطار التاريخ لنا» (١) .

طبيعي انه في الوقت الذي لم يعرف فيه الفكر ذاك « فكرة » الزمن  
التي تشكل اطار التاريخ لنا ، فان تساوقاً ما ، تساوقاً تاريخياً الى حد ما  
كان لا بد من وجوده في الفكر المشار اليه هنا ، بشكل يسمح للإنسان البدائي  
مثلاً اتقاء الوحش الضاري ، الذي رآه سابقاً مرة او اكثر من مرة . ان  
التجربة العملية اليومية للإنسان هذا كانت تعمق باستمرار فهمه الزمني  
- التاريخي - لمحيطه . اي ان ذاكرته وتذكره كانا ينموان بشكل متساوق  
مع نمو سيطرته على محيطه من خلال أدوات العمل الأولية ، ومع نمو  
وتطور قدرته على التعبير الكلامي وعلى ايجاد المفاهيم . فالذهن التاريخي  
الزمني ، بغض النظر عن بدائيته وعن كونه لم يكتسب بعد طابعاً فكرياً  
متناسقاً ، شكل لحظة ضرورية في تبصر الإنسان الاولي البدائي « النظري »  
والسلوكي . وهكذا نرى ، كما يلاحظ G.A. Gurew انه حتى Lévy-Bruhl  
قال بوجود فكر منطقي في المجتمع البدائي الى جانب فكر سابق على  
المنطقية (٢) .

ولا شك ان فكراً منطقياً - بهذا نعني هنا الفكر الانساني البدائي  
الموجّه لحفظ وتعميق عملية تبيؤ الإنسان مع محيطه - يشترط وجود  
نوع ما من الاستبصار التاريخي الزمني لعلاقة الإنسان البدائي مع محيطه ،  
ووجود فعل قائم على انسنة الطبيعة من قبل الإنسان ، وبالتالي على اغداق  
واضفاء هذا الإنسان صفاته الانسانية على الطبيعة . وهذا يعني ان تطور  
موقف المواجهة للإنسان تلقاء الطبيعة من المباشرة النسبية الى اللامباشرة

(١) هـ . فرانكفورت ، هـ . ا . فرانكفورت ، جون ا . ولسن ، توركيلد جاكوبسن : نفس  
المصدر المطب سابقاً ، ص ٣٦ .

(٢) انظر : G.A. Gurew ، في نفس المصدر المطب سابقاً ، ص ٧٩ .

— بمعنى ارتفاع الانسان على الطبيعة ذهنياً وعملياً — كان قد مر بمرحلة معينة ، لم يستطع فيها الانسان البدائي التمييز بين الذاتي والموضوعي الا بحدود دنيا نسبية ، اقتضتها طبيعة الفعالية العملية الحياتية للانسان تلقاء الطبيعة (١) . ضمن تلك الحدود اسبغ ، او بشكل أدق ، توجب على الانسان ان يسبغ على الطبيعة صفاته الحية الانسانية .

مما سبق يتبين ان الطبيعة Nature (٢) ، وادوات العمل ، والفعالية الانسانية الهادفة بالضرورة والواعية نسبياً ، قد مكنت ، مجتمعة ، من نشوء الاسطورة ومن صياغتها . لقد كتب ماركس ، في حينه ، في مخطوطاته الفلسفية الاقتصادية ، ملقياً ضوءاً مكثفاً على العلاقة الضرورية الجدلية بين الانسان والطبيعة : « ان الطبيعة هي الجسد اللاعضوي للانسان ، يعني الطبيعة بحدود كونها ليست هي نفسها جسماً انسانياً . ان يعيش الانسان من الطبيعة ، يعني : ان الطبيعة هي جسده ، الذي يجب ان يبقى معه في تفاعل مستمر ، وذلك لكي لا يموت . » ثم يتابع قائلاً : « ان تكون الحياة العقلية والطبيعية للانسان متعلقة بالطبيعة ، ليس له معنى آخر ، سوى ان الطبيعة تتعلق بذاتها ، حيث ان الانسان جزء من الطبيعة » (٣) .

**مرحلتان أساسيتان في التطور الاجتماعي للمجتمع البدائي وتأثيرهما على تطور الفكر الميثوبي — الاسطورة —**

لاشك ان الكشف عن هذه العلاقة المتبادلة بين الانسان والطبيعة ، في خطوطها العامة ، ذو أهمية خاصة .

في البدء ينبغي الإشارة الى انه ، من حيث الامكان ، يكمن في تلك

(١) ان كون الانسان البدائي ، من حيث هو اجتماعي ، فاعلاً يصنع أدوات تتيح له ، ضمن عوامل أخرى ، ارتفاعه على الطبيعة ذهنياً وعملياً ، اي اخذه موقفاً مواجهاً — متقاطباً — للطبيعة ، يجعل من التعلد قبول الصيغة المطلقة التالية : « ولذا فان التمييز بين الذاتي والموضوعي لسن يعني له ( اي للانسان ) أي شيء مطلقاً . » ( هـ . فرانكفورت ، هـ . ١ . فرانكفورت ... : نفس المصدر المعطى سابقاً ، ص ٢٣ ) .

(٢) Natur

(٣) ك . ماركس : نقد الاقتصاد القومي — موجود ضمن : المخطوطات الفلسفية الاقتصادية ، في مجلد بحث عنوان : ك . ماركس / ف . انجلز : دراسات اقتصادية صغرة ، برلين ، دار نشر ديتز ١٩٥٥ ، ص ١٠٣

العلاقة عنصر لاعقلاني irrationalistic (١) . ذلك لان هذا الامكان القابل للتحقق وجد ويوجد دائماً في اثناء عملية التعميم الفكري النظري وفي مجموع الفعالية الفكرية الانسانية . وبالطبع ، لا يمكن اعتبار هذا العنصر اللاعقلاني فقط من حيث هو تعبير عن العجز العملي والدهني للانسان البدائي، وانما، وبالدرجة الاولى ، من حيث هو نتاج مباشر لفعالته الانتاجية النشيطة بهذا القدر أو ذلك ، هذه الفعالية التي لا بد منها والتي تحدّد بالتالي من خلال مستوى منخفض للتكنيك الموضوع تحت التصرف ، كما من خلال خصائص العلاقات الاجتماعية القائمة على التملك العام البدائي .

ولقد تحدت ملامح الوعي الانساني البدائي primitive (٢) وخصائصه العامة من خلال خلفيته الاجتماعية الاقتصادية والتكنيكية . بالطبع لا يجوز هنا فهم ذلك بمعنى « اشتقاق » الوعي ذلك من خلفيته المشار اليها اشتقاقاً ميكانيكياً ، وذلك بالرغم من بدائية الوعي المعني هنا . ذلك لان بينه وبين خلفيته تلك علاقة جدلية لانفي ، بل تؤكد الوجود النوعي الخاص به (أي بالوعي) .

أما الوضع الاجتماعي الاقتصادي ، وهو ما يكون الخلفية تلك ، فيمكن تحديد مضمونه الجوهرية من خلال الواقع التاريخي الذي قام على كون جميع أعضاء المجموعات الانسانية البدائية قد توجب عليهم ان يمارسوا عملاً جسدياً ، لكي يستطيعوا العيش . عن هذا الوضع ، التميز بالحاجة المادية المباشرة ، ترتبت نتيجة هامة ، وهي أن اولئك الاعضاء لم يتوفر لديهم ، بشكل عام، وقت للتفكر في مسائل الوجود الجوهرية والكلية . وقد بقي هذا الحال سائداً على الأقل حتى تلاشى وتجوّز اجداد القبائل Ancestry (٣) من قبيل نظام الاجداد الرؤساء Chief ain ancestry (٤) . هنا ، في هذا النظام الجديد ، تكونت تعارض (تناقض) ذو طابع نزاعي ضمن القوى الاجتماعية . وقد واكب ذلك التعارض نشوء وتطور وجه ايدولوجي جديد نسبياً ، اضعف من الوعي الجماعي الذي سيطر حتى ذلك الحين اضعافاً ، ان لم يكن كلياً ، فقد كان قوياً .

(١) irrationalistisch (٢) primitiv (٣) Ahnen

(٤) Haeuptlingahnen . انظر حول هذا الموضوع : G. Paetsch ، نشيد لوفلانتي وفكرة الاله الاملى - مطبوع كمخطوط في : عدد خاص من المجلة العلمية لجامعة فريدريك شلر، بينا ، ١٩٦٣ ، ص ٧٩ .

في المجتمع البدائي تدور المسألة اذن حول فترتين اساسيتين من تطور العلاقات الاجتماعية والوضع الايديولوجي . الفترة الاولى ، وهي العصر الحجري القديم Palaeolithic (١) ، كانت تقوم على اقتصاد الضرورة ، أي انتاج الحد الأدنى الضروري من القيم الاستهلاكية ، دون انتاج بغاية التبادل . كما تميزت هذه الفترة التاريخية الاولى بسيطرة العمل الجماعي وشموليته . وقد امتدت حتى العصر الحجري الجديد Neolithic (٢) ، حيث تبدأ الفترة الثانية ، أي حتى عام ٤٠٠٠ ق م تقريباً (٣) .

لقد كتب John Lewis ، متعرضاً للعصر الحجري القديم : « بأن ناس هذه الفترة (قد طوروا) التكنولوجيا وفن الفائر الى درجة ملحوظة (٤) . أما المرحلة الثانية التي تلت تلك فقد كانت مسرحاً لتحولات ذات شأن كبير ضمن بنية « الاتحاد العائلي البدائي » Matriarchy (٥) ، هذه التحولات التي ارتبطت نشوؤها بنشوء ظواهر جديدة في الاقتصاد البدائي . فقد كان ظهور الزراعة ، وتربية الدواجن من الصيد ، وجمع الثمار البرية ، وكذلك تحسين أدوات العمل التكنيكية طبقاً لتنامي درجة سيطرة الانسان على الطبيعة ، وأخيراً تطور أشكال جديدة من تقسيم العمل - وأخص منها ظهور قبائل الرعاة على انقاض تقسيم العمل البدائي المرتبط بوجود الجماعة Community (٦) - ، كل هذا ، مجتمعاً ، ساهم في تشكل مجموعات اجتماعية معينة ، سادت فيها علاقات اجتماعية ذات طابع نزاعي ، وذلك الى جانب العلاقات الاخرى ذات الطابع المشامي المتجانس . لأن ظهور قبائل الرعاة لم يكن فقط تعبيراً عن تطور متنامٍ للخيرات المادية والتكنيك ، وإنما كان أيضاً الأساس العام من أجل ادخال التبادل في الخيرات المادية الاقتصادية ، وبالتالي الطريقة للحصول على فائض معين في بعض المنتجات ، مثل اللحم والدواجن (٧) .

في ذلك الواقع الاجتماعي كمنت البدايات البسيطة للتطور اللاحق

#### Palaeolitikum (١) Neolitikum (٢)

(٣) انظر : John Lewis ، الصيرورة الانسانية للانسان ، دار نشر العلوم الشعبية الالمانية ، برلين ١٩٦٤ ، ص ٥١ . قارن ذلك أيضاً ب : J. Bernal ، العلم في التاريخ ، برلين ١٩٦١ ، ص ٥٢ .

(٤) ج . لويس : نفس المصدر المشار اليه سابقاً - نفس الصفحة .

#### Gemeinschaft (٦) Gens (٥)

(٧) قارن : الكتاب التلميمي للاقتصاد السياسي ، دار نشر ديتر ، برلين ١٩٦٠ ، ص ٢٦ .

على أساس من الامتيازات الاجتماعية والثقافية ، التي اكتسبت من قبل الآباء الاولين ( الأجداد أو الأسلاف ) Ancestry . خلال ذلك نشأت نزاعات مختلفة عديدة بين هؤلاء الآباء . وقد اجتل هؤلاء أكثر فأكثر المواقع الحاسمة ضمن جماعاتهم المتكونة من اتحاد عائلي واحد أو أكثر .

هذه هي بشكل عام الملامح الأساسية للعلاقات الاجتماعية البدائية التي يمكن فهمها - وذلك بالعلاقة مع فهم دقيق لمستوى القوى الانتاجية الخاصة بتلك العلاقات - من طرح قضية الاتجاه العام لتفسير علمي تاريخي لعالم افكار World of Thoughts (١) الانسان المجتمعي القديم .

### الاسطورة والسحر والطقس

لقد سبق وبيّنا انه من الامور الواردة ان نعتبر الاسطورة اللحظة « النظرية » في الوعي الانساني البدائي . اننا نعني بهذا انه الى جانب الاسطورة قد وجد السحر Magic (٢) والطقس Rite (٣) ضمن الوعي ذلك . لقد بحث George Thomson في كتابه حول «الفلاسفة الاول» اشكال ووعي الانسان البدائي ، فاعتبرها تصورات غير ناضجة حول الطبيعة . انه قصرها اولاً ، على السحر « الذي توجب عليه ، من حيث هو تكنيك انتاج وهمي ، أن يعدل - يتجاوز - نواقص التكنيك Technics (٤) الواقعي ، ومن طرف آخر على الاساطير . . . ، التي كمنت بداياتها فقط في المرافقة الشفوية للسلوك السحري ، هذه البدايات التي تطورت على نحو متدرج الى نظرية اولية rudimentary (٥) حول الواقع (٦) » .

لاشك انه وجدت علاقة متبادلة بين السحر والاسطورة والطقس في الشكل الذي يبرزه تومسون هنا . ولكن هل اقتصرت « الاسطورة » فعلاً على هذه المرافقة الشفوية ؟ تاريخياً ونظرياً - معرفياً يمكن القول بان الاسطورة نشأت كلحظة مؤولة في وعي ذلك الانسان ، في الوقت الذي استطاع فيه هذا الأخير تأكيد نفسه ، من حيث هو انسان فاعل يصنع ويستعمل . ويعيد صنع أدوات العمل . وعلى هذا الأساس قامت الوظيفة الايدولوجية - المعرفية والاجتماعية للاسطورة . اما هذه الوظيفة فيمكن

Ritus (٣)

Magie (٢)

Gedankenwelt (١)

rudimentaer (٥)

Technik (٤)

(٦) ج . تومسون : الفلاسفة الاول ، دار نشر الاكاديمية ، برلين ١٩٦١ ، ص ٢٩١ .

تحديدها بالتوجيه الهادف المؤؤل ، الضروري والبدائي للانسان بالنسبة الى محيطه الواقعي ، أي بالنسبة الى موضوع Object و عملية Process (١) الانتاج الذي يمارسه بدوافع حيائية مباشرة . في هذا الاطار من المسألة يمكن اعتبار الاسطورة جزءاً من عملية الانتاج ، بيد أنها لم تكن ملتحمة به بشكل مطلق . اذ أن الاحاطة الأولية الضرورية بعملية الانتاج وبالواقع الطبيعي من قبل الانسان البدائي - بوعيه الميثوبي ، الاسطوري - لا يمكن ان تتم اذا لم يرتفع هذا الانسان ذهنياً وبقدر ما على تلك العملية وذلك الواقع .

ونحن هنا نستطيع الافتراض بأن الاسطورة والسحر قد تطورا موازيين لبعضهما ، ومن خلال تأثير متبادل . والجزء المتكلم من الاسطورة كان له انعكاسه ووجوده الذهني في دماغ الانسان ، ذلك لأن الكلمة أو اللغة بشكل عام « هي الواقع المباشر للفكر » (٢) . اذن هنالك عنصر « تأويلي » معين ، يمكن الكشف عنه في اثناء بدايات تطور الاسطورة . كذلك السحر والطقس يمكن اعتبارهما ممارسة Practice (٣) الاسطورة . أما الاسطورة فنستطيع تحديدها من حيث هي الانعكاس « الفكري » ، أو بشكل أدق ، التوجيه الذهني الهادف للسحر والطقس تلقاء الواقع الطبيعي المحيط . ونحن اذ نتكلم عن « بداية » للفعالية الاسطورية لدى الانسان البدائي ، فانما نفهم من خلال ذلك نشوء اتجاه ، أو بدقة أكثر ، نشوء ميل لتطور ذهني ( نظري ) .

وقد تبلور هذا الميل بشكل خاص عبر عملية بطيئة قامت على انفصال الاسطورة عن عملية الانتاج المباشر ، بحيث اكتسبت ( أي الاسطورة ) استقلالية معينة تلقاء السحر والطقس .

### الاسطورة في وحدتها وانشطارها .

ان وضع القضية بالنسبة الى نشوء وتطور اللحظة المادية (الواقعية) واللحظة المثالية ( اللاواقعية ) يمكن له ، في حال اخذنا ما سبق بعين الاعتبار ، أن يوضّح ، انطلاقاً من مركبين من القضايا :

(١) Prozess

(٢) ك. ماركس/ف. انجلز : الايديولوجية الالمانية ، نفس المعطيات السابقة ، ص ٤٢٢ .

(٣) Praxis



١ - في المرحلة الأولى من تطور المجتمع البدائي ( العصر الحجري القديم ) تشكل الاسطورة اسلوب نظر هادف ، يتميز بالدرجة الأولى بكونه موحدًا unitary (١) وليس منشطاً أو متميزاً . وقد اكتسب الانسان هذا الاسلوب من خلال محاولته الضرورية والدؤوبة الكشف عن « ذات » العالم الموضوعي ، أي قانونيته ، وبالتالي السيطرة عليه عن طريق أنسنته . و « وحدة » اسلوب النظر الهادف ذلك هي نسبية ، بمعنى انها لا تنفي ان تكون اساطير الانسان البدائي في المرحلة الأولى من تاريخه متعددة الاشكال والمضامين . فهي ، في نسبيتها ، قد عبرت عن الاسلوب Weise (٢) والميل ضمن الاسطورة للانفعال أمام مؤثرات خارجية ، كما للرد على هذه المؤثرات . وهكذا فانها (أي الاسطورة) تعبر عن اتجاه عملية استيعاب وفهم الواقع الموضوعي الطبيعي ، أكثر مما تعبر عن نفسها كالحظة ذهنية مستقلة وعاكسة للواقع ذلك .

بيد أن « وحدة » اسلوب النظر الهادف ضمن الاسطورة اكتسبت مبررات وجودها الموضوعية من الواقع الاجتماعي ، الذي ساد فترة التطور للمجتمع ( أي العصر الحجري القديم ) ، هذه الفترة التي قامت بشكل عام وجوهري على اقتصاد الكفاف أو الحاجة المباشرة Economy of direct need (٣) ، وبالتالي على ضرورة ممارسة عمل جماعي مشترك .

٢ - أما المركب الآخر من القضايا ، الذي يلقي ضوءاً ساطعاً على نشوء وتطور اللحظة المادية والأخرى المثالية ( الواقعية واللاواقعية ) ، فإنه ينطلق من ايضاح الجذور الأولى البدائية للمسألة الأساسية للفلسفة Fundamental Question of Philosophy (٤) ، هذه المسألة التي تعتبر الترسانة الأكثر حسماً في فهم التاريخ الفلسفي . لقد كتب ف. أنجلز حول ذلك مايلي : « ان مسألة علاقة الفكر بالكون ، العقل بالطبيعة ، لها جذورها ، بشكل لا يقل عن كل الأديان ، في التصورات الجاهلية البدائية ، الخاصة بحالة التوحش (٥) . أن يكون للفكر الفلسفي جذوره ، حسب أنجلز ، في هذه الفترة التاريخية الموعلة في القدم ، يعني في رأينا أن نبحث عن هذه الجذور في

einheitlich (١) Weise (٢) Notwirtschaft (٣)

Grundfrage der Philosophie (٤)

(٥) ف. أنجلز : لودفغ فويرباخ وسقوط الفلسفة الألمانية الكلاسيكية . موجود في : د. ماركس/ف. أنجلز : أعمال مختارة في مجلدين ، برلين ١٩٥٧ ، مجلد ٢ ، ص ٢٤٤ .

« الاسطورة » . ولقد كتب H. Ley مشيراً الى وجود « مركبين متعارضين ، من حيث ميلهما ، » (١) ضمن الاسطورة .

ان كلا الحلين الأساسيين للمسألة الأساسية للفلسفة ، المثالي والمادي ، قد وجدا بدورهما الأولية في الاسطورة . وفي الوقت الذي وحدث بينهما الاسطورة ، فان هذا التوحيد لم يكن مطلقاً . ان وحدة مطلقة لم توجد أبداً بينهما ، اذ ان هذا غير قابل للتحقق لا معرفياً ولا اجتماعياً . فالميل لتجاوز الوحدة تلك من خلال انشطار وتمايز طبيعي وضروري كان قائماً في صلب الاسطورة . ذلك لأن « الوحدة » بدأت تكتسب وجودها ، في الوقت الذي اخذت فيه تفقد باستمرار من وحدتها تلك المصلحة تشكل ميل التناقض والتعارض ذلك وتعميقه . وفي الحقيقة ، في هذا الميل تمركزت وتبلورت بدور فكر نظري فلسفي مستقبلي .

ان هذا يعني اذن ان « وحدة » الفكر الانساني البدائي ، المتمثل بالاسطورة ، احتوت في نفس الآن انشطاراً بذرياً الى اللاواقعي ( المثالي ) والواقعي ( المادي ) . بيد اننا حين نتحدث هنا عن ميل طبيعي وضروري ضمن الاسطورة لانشطارها ، وبالتالي لتجاوز ذاتها ، فاننا نرى ان هذا قد تم على مستوى الممارسة الاجتماعية الانتاجية اكثر مما قد تم على مستوى « النظرية » . ولذا فانه لا يمكن ، بعد ، التحدث في اطار هذه المرحلة الانسانية عن فكر فلسفي .

### التناقض بين شكل الاسطورة ومضمونها

اما الشكل الذي اكتسبه التطور الذهني للانسان البدائي ، فقد وجد تعبيره في نزاعات غامضة بين المنحيين ، الواقعي واللاواقعي ضمن الاسطورة . كما ان الاسطورة ، التي تضمنت بدوراً أولية غامضة لعنصر فكري واقعي وآخر لا واقعي ، يمكن ان تظهر ، من حيث الشكل Form (٢) الذي اخذته ، غير حقيقية True (٣) . وهذا مانجده في أغلب الحالات . في هذا الصدد يكتب هـ . و هـ . ا . فرانكفورت في مدخلهما لكتاب « ما قبل الفلسفة » بأن الصور الاسطورية في الادب والفن « من نتاج الخيال ، ولكنها ليست مجرد وهم » (٤) . ان هذا - ولا شك - صحيح . ذلك انه ينبغي علينا أن نميز

(١) هـ . لاي : تاريخ حركة التنوير والالحاد - برلين ١٩٦٦ ، مجلد ١ ، ص ٢٢ .

(٢) Form (٣) Wahr

(٤) هـ . فرانكفورت ، هـ . ا . فرانكفورت ، جون . ا . ولسن ، توركيلد جاكوبسن : نفس

المصدر المعطى سابقاً ، ص ١٨ .

هنا ، بقدر ما نستطيع من الدقة ، شكل الاسطورة عن هدفها . فشكلها مرتبط ، في ذهن البدائي ، بقدرته على الارتفاع على الواقع الطبيعي والانفلات من علاقته المباشرة به ، وبالتالي بإمكاناته على التجريد الذهني . بيد أن التجريد هذا لا يعني تجريد الواقع الطبيعي الموضوعي بشكل منطقي وعقلي ، بل الارتفاع عليه ارتفاعاً حسيّاً وهمياً ورمزياً ، بحيث تظل علاقة محددة قائمة بين ذلك « الشكل » الاسطوري والواقع الطبيعي الموضوعي . أي أن الشكل الذي تأخذه الاسطورة ليس من الضروري أن يكون بينه وبين الواقع ذاك علاقة جوهريّة . على العكس من هذا ، نجد مثل هذه العلاقة الجوهريّة سائداً بين مضمون الاسطورة وهدفها وبين الواقع الطبيعي الموضوعي ، في هذه الأغوار البعيدة السحيقة من التاريخ الفكري الانساني يمكننا ، انطلاقاً مما سبق ، رؤية واستجلاء التناقض النسبي الذي هيمن على العلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون ، ولا يزال كذلك حتى الآن (١) .

بالإضافة الى ذلك ينبغي الإشارة الى أن معياراً علمياً دقيقاً لحقيقة أو لعدم حقيقة اسطورة معينة لا يمكنه أن يكتفي بالانطلاق من مضمون وشكل الاسطورة تلك ، بل أن الاجابة على السؤال حول كيفية تشكلها وتطورها وحول الظروف التي رافقت ذلك وساهمت فيه ، لهو أمر لا بد منه في سبيل القاء ضوء ساطع على قضيتنا . أي أن هذا يشترط كشف وإيضاح **الدوافع** Motives (٢) التي تكمن وراء عملية تكوّن الاسطورة . كما يشترط ، من طرف آخر ، تحديد واجلاء كيفية توجّه Approach (٣) الاسطورة للاستجابة والاجابة على المؤثرات الخارجيّة . فـ « لماذا » و « كيف » ينبغي إذن الكشف عنهما في الاسطورة والتأكيد عليهما والتمييز بينهما .

### علاقة الاسطورة بالواقع الطبيعي وعمالية تلاشيها وتجاوزها

لقد طرح كارل ماركس في حينه الموضوع التالي : « أن كل الاسطورية Mythologie تتغاب وتسيطر على القوى الطبيعية وتكيفها في الوهم ومن خلال الوهم : انها تتلاشى إذن مع السيطرة الحقيقية على هذه نفسها

(١) ان قضية التناقض أو التطابق بين الشكل والمضمون من المسائل الهامة ، التي تعالجها علوم عديدة في عصرنا ، مثل علم اللغة وعلم الجمال الخ... وهنا ، وبشكل عام ، نستطيع القول بأن المضمون يتطور بمنحى أسرع من منحى الشكل ، هذا طبعا بالرغم من أننا نستطيع الحديث عن تطابق نسبي معين بينهما .

(٢) Motive (٣) Herangehen

( اي القوى الطبيعية : ط.ت ) « ( ١ ) .

من هذه الموضوعة يمكن ابراز ناحيتين ، الاولى تقوم على أن الاسطورة لها تاريخ، تاريخ خاص بها . أما الناحية الثانية فتكمن في كون الاسطورة ترفع ويجري تجاوزها ، في الوقت الذي تتحول فيه سيطرة الانسان الحقيقية على الطبيعة المحيطة به الى واقع حي وواسع نسبياً . ولكن هل بإمكاننا فهم هذا بمعنى ان الاسطورية تمثل شيئاً مفرغاً من اي انعكاس صحيح له ؟ ان الاجابة على هذا التساؤل بالاجاب تتضمن نتيجة لا يمكن فعلاً تبريرها والأخذ بها من وجهة نظر تاريخية معمقة . هذه النتيجة هي عدم اعترافنا للانسان البدائي بتملكه عنصراً ذهنياً ( فكرياً ) هادفاً ، في الحد الأدنى الضروري ، الى سبر جوانب محيطه الطبيعي واخضاعه لضرورات حياته الضرورية . ولكن انكاراً لمثل هذا التبيؤ « الفكري » الأولي والتلقائي للانسان تجاه الطبيعة المحيطة به يعني عملياً ، وفي آخر تحليل ، انقراض وتلاشي الانسان تحت ضغط الضرورة المعاشية اليومية ، وذلك منذ «بداية» نشوئه . انه ( الانسان البدائي ) لم يتبياً فقط تبيؤاً بيولوجياً ، وانما ايضاً، وبشكل نسبي ، تبيؤاً فكرياً هادفاً واجتماعياً . اذ انه بدأ يوجد، من حيث هو انسان ، في الوقت الذي أخذ يمارس فيه عملاً بواسطة أدوات عمل بدائية ، كالفأس الحجري أو الابرة العظمية .

ان فعالية الانسان العملية لهي فعالية متوسطة . فهي تتم بأدوات عمل، ومن خلالها ، ولكن ليس بشكل ميكانيكي . ذلك لأن استعمال وصنع أدوات عمل يتطلب من مستعملها ومستخدمها حداً أدنى معيناً من الهدفية الواعية . وهذا يشترط ضمناً وجود تطور ذهني ( فكري ) لدى الانسان . فعملية العمل هي بشكل جوهرى نشاطية هادفة مسبقاً ، يقوم بها الانسان للامام بموضوع عمله ( اي الطبيعة ) وانسنته . وبذلك تكون قدرته على استخدام وصنع أدوات عمل مرتبطة بمخطط ذهني ( فكري ) في دماغه، مخطط يسبق تحقيق هذه القدرة ويرافقها في نفس الآن : ان « الفكري » يتحول الى « مادي » . وهذا الأخير ، الذي يمكن تسميته هنا ايضاً بـ « الموضوع » يشترط وجود الفكري ، الذي يمكن تسميته هنا ايضاً بـ « الذات » . وهنا نجد انفسنا امام حقيقة هامة تكمن في أن سلوك الانسان البدائي وذهنه لم يكونا ابدأ خاضعين لضرورة ميكانيكية مطلقة ، بل كانا في مجموع مراحلهما يتمتعا بنصيب من الحرية تلقاء الواقع الطبيعي الموضوعي .

(١) ك. ماركس : نقد الاقتصاد السياسي ، برلين ١٩٥١ ، ص ٢٦٨ .

بيد أنه على أساس هذه المعطيات وانطلاقاً منه انبثقت إمكانية الانحراف عنها والتعالي عليها ، بحيث بدأ الأمر كما لو أن «الفكرة» ، التي ينتجها دماغ الانسان ضمن تأثيرات عديدة معقدة ، تسبق العالم المادي في الوجود ، وتمنحه خصائصه الذاتية ، المعبر عنها بـ «الروح» أو «النفس» . فالطبيعة ، حسب ذلك ، ليست هي الوجود « الحقيقي » وليست هي أصل « ذاتها » ، وإنما الفكرة « عنها » هي التي تتمتع بذلك الوجود الحقيقي المحض ، وهي بالتالي المبدعة للطبيعة .

ان واقع اقتصاد المجتمع البدائي القائم على الكفاف والحاجة الأولية قد عبر عن نفسه بأشكال متعددة واقعية ولا واقعية في الاسطورة ، التي اكتسبت الشكل الأولي لوعي الانسان البدائي ، أي الشكل المتمتع بالحد الأدنى الضروري من « الوعية » . بهذا المعنى نجد الاسطورة قد اكتسبت طابعاً عمومياً ، وذلك من حيث كونها قد جسدت اللحظة « النظرية » التشوفية في وعي مجموعة أو عدة مجموعات انسانية بدائية . ان خلفية هذه « العمومية الاسطورية » يمكن تفصيلها ، حسب رأينا ، في طابع عملية العمل ، الذي انجزته تلك المجموعات الانسانية . فالطابع هذا كان أيضاً عمومياً ، اذ لم يكن بإمكان الفرد تحقيق وجوده المادي الا من خلال نشاط مجموعته . لذا فان موضوع عملية العمل تلك ، أي العالم الطبيعي الموضوعي ، هو ، ان تكلمنا بلغتماركس ، «موضع الحياة الجنسية (من الجنس ، وهو مفهوم يقابل بمفهوم النوع : ط . ت ) للانسان» (١) . كما أن موضوع عملية العمل هو كذلك ، من حيث كونه يستوعب ويُمثل من قبل الذات الانسانية العارفة والموضوعة . أما الحياة « الجنسية » ، التي كونتها المجموعة الانسانية البدائية ، فقد عبرت عن ذاتها من خلال الاسطورة الجنسية (الجماعية) .

بيد ان عمومية أو جماعية الاسطورة كانت قد تضمنت منذ بدء تكونها وتبلورها ( أي الاسطورة ) ميلاً كامناً للتمايز الذاتي ، وبالتالي للانحطاط الذاتي . ان سلوك الانسان البدائي قد حُدد من خلال إمكانات العمل الذي ينجزه . وكذلك « فكره » أكد نفسه أكثر فأكثر كمخططٍ واعٍ لسلوكه ، وكان عاكساً فعالاً ، بقدر ما ، للعالم المحيط به . ان هذا يعني ، في نهاية

(١) ك. ماركس : نقد الاقتصاد القومي - ضمن : المخطوطات الفلسفية الاقتصادية ، نفس

المعطيات السابقة ، ص ١٠٥ .

الأمر ، أن كل اسطورة تتضمن ، بشكل أو آخـر ، شيئاً من الحقيقة . وما فن المغاور في العصر الحجري القديم الا برهان واضح على ذلك (١) .

### نتائج التقدم في التكنيك والاصوات الطبيعية والتجريد الذهني

ان الابحاث التي قدمها بعض العلماء (٢) في مجالات العلوم المقارنة والواصفة الخاصة بالشعوب - العلوم الاثنوغرافية والانتولوجية - تـري ، بالتعاون مع نتائج ابحاث فلسفية اخرى ، أهمية الدور الذي مارسه تطور وتمايز « الاصوات الطبيعية » لدى الانسان البدائي ، هذه الاصوات التي خدمته كوسيلة للتفاهم . ولقد نشأت وتطورت هذه الاصوات ضمن ومن خلال عملية العمل . ولذا فانها تميزت نوعياً عن الاصوات الحيوانية ، التي لا تربطها علاقة منطقية ما والخواوية من مضمون هادف « ذهنياً » .

بالعلاقة مع تقدم تكنيك العمل ومع العمل الجماعي تطورت الاصوات الطبيعية واكتسبت اشكالا اكثر تمايزاً وخصباً . وقد تم هذا متأخياً مع تطور الميل للتعميم والتجريد الذهنيين في دماغ الانسان انطلاقاً من أشياء وعلائق طبيعية واجتماعية : ان نمو هذه القدرة لدى الانسان (أي التعميم والتجريد ) ساهم بشكل اساسي وحاسم الى حد بعيد في تبلور وتطور الفكر الفلسفي المتميز في وقت لاحق (٣) . وقد جسدت « الاسطورة » ذلك الميل واحتوته ، وكانت هي بالتالي تعبيراً عنه .

---

(١) في المؤلف الضخم ( تاريخ عام للفن ) - لايبزغ ١٩٦٥ ، مجلد ١ - نجد اشكالا وصلتنا من تلك الفترة التاريخية ، ليس لها فقط قيمة تاريخية ، وانما ايضاً قيمة جمالية . فنس الشكلين « راس حصان » و « امرأة بقرن » مثلاً ، من العصر الحجري الاول (ص ٥٥٣ و ٥٥٤) يمكن التعرف على كيفية عكس انسان ذلك العصر لمحيطه الطبيعي ، وبأي شكل قد تم هذا : لقد تم بأسلوب واقعي ( انظر : ص ٢٦ ) . هذه الحقيقة التاريخية دعمت من قبل الباحث الفرنسي G. de Mortillet ( عاش من ١٨٢١ حتى ١٨٩٨ ) ، حيث ابان ان فن العصر الحجري القديم مترع بمضمون واقعي (انظر: تاريخ الفلسفة، مجلد(١) ، برلين ١٩٦٠ ، ص٢٠) .

(٢) مثل Leonhardt و Westermann

(٣) ان الانسان « يرسم حيواناً . وهو بهذا يكون ملاحظاته حول هذا الحيوان . انه يعيد تركيب شكله دائماً بثقل أكبر . انه يعطي معرفته المنثقة عن هذا الشكل صورة محسدة ، وبدلك يشبثها . وفي نفس الوقت يتعلم التعميم : ففي شكل وامل واحد تستجمع الخصائص ( من قبل الانسان ) ، التي روتبت لدى وعول كثيرة » . ( تاريخ عام للفن - نفس المعطيات السابقة ، ص ٢٠ ) .

## تجاوز وهمي للعالم المادي ، ومحاولة استيعابه نظرياً وعملياً

كما أن الميل هذا تضمن كلا اللحظتين ، الواقعية واللاواقعية . وهاتان اللحظتان قادتاه بدورهما باتجاهين متعارضين . فالواحدة منهما ، وهي « اللاواقعية » ، انبعثت عن العجز النسبي للإنسان البدائي تلقاء محيطه الطبيعي الموضوعي وتلقاء نفسه هو . أما اللحظة الأخرى فقد كانت تعبيراً عن الموقف الإنساني الهادف واقعياً هذا الموقف المشترط وجوده حياتياً ، كما كانت تعبيراً عن رد فعل الإنسان على محيطه والتأثير عليه .

وقد عمقت اللحظة الأولى ، اللاواقعية ، وجودها من خلال منحها ينبوعها ، الذي هو العجز ، طابعاً نظرياً ناجزاً ، وذلك من خلال لجوئها ، في حال تعاملها مع الطبيعة ، الى « قوى » ليست بذات وجود حقيقي مشخص . انها رأت في الظواهر الطبيعية ، التي وقف الإنسان عاجزاً تلقاءها قوى وهمية ، معتبرة اياها المبدعة لتلك الظواهر . وهي ، أي اللحظة اللاواقعية ، اذ اختطت طريق تعمقها واكتسابها طابعاً متميزاً ومستقلاً عن اللحظة الواقعية ، فانها ارسدت بذلك الحجر الاساسي للتطور اللاحق للفكر الفلسفي المثالي وللتصور الديني .

ان « روح » و « قوة » الشيء ، حسب الفكر الفلسفي المثالي والتصور الديني ، ليسا من هذا الشيء . فهو لا يتضمنهما بمعنى انه اصلهما وينبوعهما ، بل بمعنى انهما يضيفان عليه وجوده الحقيقي ، فهو ظل مشوه لهما . وهكذا فالعلاقة بينهما وبينه ليست علاقة مساواة ، ذلك ان « القوة » و « الروح » يتمتعان بوجود مستقل في « مكان ما » حيث يمارسان ، من هنا ، تأثيراً على الشيء وعلائقه مع الاشياء الأخرى ، هذا التأثير الذي يمتد حتى عملية الابداع من عدم مطلق .

بالطبع ، لا يجوز للمرء ان يبالغ في تقدير الدور الأولى للتطور الفلسفي المثالي والوهمي . بيد انه مما لا شك فيه ان في هذه « الدور » قد كمنت اصول الأديان التي نشأت لاحقاً الى جانب المثالية الفلسفية ومن خلال فعل متبادل معها . ان الدينية Religiosity (1) ، التي استقت جذورها من العجز الإنساني الموضوعي والذاتي ، قد وقفت في تعارض متسع اكثر فكثر مع مطامح الإنسان الأولية في تحقيق سيطرة حقيقية لا وهمية على

Religiositaet (1)

عالمه المادي المعطى وفي تحويل ( انسنة ) هذا العالم تحويلاً هادفاً . ولقد حمل هذا في احشائه نتيجة سلبية تلقاء عملية المعرفة ، حيث أدى بها الى الشلل . لم يعد المرء يتكلم هنا عن « معرفة » حقيقية للعالم الحقيقي ( المادي ) ، وانما عن عملية تهدف الى سلخ العالم هذا من « ماديته » ، وذلك للتأثير على احداثه وعلائقه لصالح رفع وهمي لعجز الفرد والمجموعة الانسانية البدائية(١) .

ان كل هذه اللحظات قد احتضنت من قبل «الاسطورة» . بيد أن الميل الآخر المضاد ، الميل الواقعي ، وقف في تعارض متنام اكثر فأكثر واعمق مع تلك اللحظات الناشئة عن العجز . وقد تم هذا انطلاقاً من «عملية العمل» الانسانية اليومية وتحت تأثير متطلباتها . وحيث تم هذا ، فانه اتخذ وجهة واضحة المعالم ، تمركزت في رؤية الانسان البدائي للعالم الخارجي ليس من حيث هو شريك ثان له ، وليس من حيث هو ذات موجودة خارجاً عنه ، وانما - وهذا هو المهم - كتحقيق مباشر له ( اي للعالم الخارجي ) .

ان هذه العلاقة العملية والوجودية ( الانطولوجية ) بين الانسان والعالم الخارجي كانت في نفس الوقت المنطلق الأولي المحوّل والترسانة الحقيقية - الاصلية - للتطور اللاحق الخاص بالاتجاه الفلسفي المادي وبالعلم عموماً .

### هل تاريخ الفكر الفلسفي احادي الجانب ؟

اننا نستطيع ، بناء على ما سبق ، رفض الراي القائم على أن تطور تاريخ الفكر النظري قد سار بشكل احادي ، بمعنى أنه تاريخ لمفهوم اساسي واحد فقط ، دون التكلم عن مفهوم آخر مضايف له . فالفيلسوف الالماني الوضعي J. Petzoldt حاول ان « يقرب الى الافهام ، على أساس من علم النفس ، تاريخ التفكير بالعالم من حيث هو تاريخ ذو مغزى لضلالات ( اخطاء ) ، وذلك بمعنى انه ( ذلك التاريخ ) يلاحق ويتابع خطأ أصلياً منطقياً وتجريبياً موجوداً في مجموع الرؤى الفلسفية الكونية تقريباً »(٢) . ويتابع القول بأن المفكرين الذين جعلوا من ذلك المفهوم ، السليدي يسميه

(١) ان تصور اللاتون ، الفيلسوف المثالي الكبير ، عن المعرفة ك « تدكر » يمنح عملية « سلخ العالم » تلك وضوحاً نظرياً بارزاً . وبالطبع لم يتحقق هذا الا بعد نشوء «الفلسفة» بالمعنى المتميز .

(٢) ي. بتسولدت : قضية العالم ، نفس المعطيات السابقة ، مقدمة الطبعة الاولى .



بالجوهر Substance، المبدأ الأوجد والأشمل لنظمهم الفلسفية ، لم يستطيعوا ان يستوعبوا كون هذا المبدأ غير مفهوم بذاته ، لأنه يمكن تحديده والتعرف عليه فقط من خلال معالجته في علاقته العضوية مع غيره (١) . وكذلك فالتفكير يبدأ ، حسب رايه ، مع نشوء وتطور التمايز والتعارض . وبما أن هذا ، حسب رايه أيضاً ، قد تحقق لأول مرة في تاريخ الفكر على يد الفلاسفة الوضعيين Schuppe و Avenarius و Mach ، فإنه يدين مجموع التاريخ السابق على هؤلاء كتاريخ « ضلال أو خطأ ذي مغزى عميق » . وقد كان من الممكن تجنب هذا الضلال ، لو وجدت الشخصيات الفذة المؤهلة لانجاز ذلك (٢) .

على هذا النمط اللاتاريخي ، وانطلاقاً من احكام مسبقة ، تعرض المسألة ، ويحاول إكسابها طابع الموضوعية العلمية .

ونحن حين نفترض ، كما يريد بتسرلذت ، أن الاتجاه المادي قد بقي الوحيد السائد في تاريخ الفكر الانساني حتى نشوء المذهب الوضعي ، وأن العنصر « الفكري » أو « الروحي » بالتالي لم يتواجد مع الاتجاه ذلك كمفهوم متعارض معه ، فإننا سوف نصل الى النتيجة الضرورية التالية ، وهي أن كل الفترة التاريخية تلك تاريخ للفكر المادي الفلسفي فقط ، القائم على الضلال والخطأ . بيد أن الأخذ بهذا الرأي والنظر الى التاريخ الفكري من هذا المنظور يشكل خطأ مزدوجاً : فمن طرف ادل لأن الفكر الفلسفي ، المادي والمثالي ، قد تشكل بالأصل انطلاقاً من « اسطورة » المجموعات الانسانية البدائية . وثانياً لأن « الفكري » أو اللحظة الفكرية نفسها في دماغ الانسان قد جرى تملكها وتفسيرها من هذين الميادين الفلسفيين الأصليين بدرجة ورؤية مختلفتين .

فالحظة المادية في الميل المادي تضمنت ، على هذا الشكل ، اللحظة الروحية أو الفكرية مفهومة وماخوذة من خلال رؤية واقعية .

من هذا المنطلق يمكن ان يبدو الأمر كما لو كان وحدة مطلقة بين الوجود المادي والوجود الواعي نسبياً ، أي بين الوجود المادي وانعكاسه الذهني ( الواعي ) في دماغ الانسان البدائي . الا ان هذا الافتراض غير دقيق . ذلك لأنه في الوقت الذي كانت فيه هذه الوحدة المطلقة تفصح عن نفسها - وهي في الأصل من مخلفات فترة انتقال الحيوان الى انسان - ،

(١) انظر : نفس المصدر السابق ، ص ٣٠ - ٣٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٨٠ و ٨٤ .

كانت ذات أهمية ثانوية ، غير جوهرية . أما الأهمية الجوهرية فقد اكتسبتها ، في هذه الحال ، عملية انفصال الانسان عن الطبيعة وارتفاعه عليها . هذا يعني أن اللحظة الفكرية والمحيط المادي لم ينظر اليهما على انهما الشيء نفسه ، وأن اللحظة الفكرية بالتالي لم ينكر وجودها .

ان التثبيت من وجود اللحظة الاخيرة تلك يعطينا اياه ، كما رأينا ، واقع الاسطورة البدائية ومضمون الانظمة الفلسفية المادية لدى الفلاسفة الطبيعيين اليونان في التطور اللاحق . فهنا احتفظت اللحظة الفكرية « بخاصيتها » في اطار المادي ( أي المحيط المادي ) ، وذلك كجزء « خاص » ضمن هذا المادي . انها استوعبت كقطاع خاص ب « بالحركة والحيوية » في العالم المادي . هذا الاتجاه في فهم القطاع الفكري شكل قاسماً مشتركاً بين وعي الانسان البدائي وبين الفكر الفلسفي للفلاسفة الطبيعيين اولئك ، وعلى الاخص الدريين منهم .

من طرف آخر نجد ان اللحظة الفكرية قد جرى تمثيلها من قبل الاسطورة في المجموعات الانسانية البدائية ومن الاتجاه الفلسفي المثالي اللاحق بشكل لا واقعي ، ماورائي . وقد تم هذا ، في جوهر المسألة ، على حساب المادي ( المحيط المادي ) . من خلال ذلك لم يستطع هذا الأخير ان يؤكد ذاته الا كمجال تمظهر للفكري .

### أيهما أكثر قدمية واصالة ، الميل المادي أم الميل المثالي ؟

والآن ، وبعد ما استعرضناه من أمور ، نرى السؤال التالي يفرض نفسه علينا بالحاح : أيهما تكون قبل ، الميل المادي أم الميل المثالي ؟ ان التوغل في جوهر القضية يظهر أن هذين الميلين لم يجتازا في نشوئهما تطوراً متساوياً متوازياً ، بل تطوراً متميزاً برز فيه الميل المادي قبل الآخر المثالي . وفي الحقيقة ، هذا يعود الى أن الانسان « بدأ » يوجد كإنسان ، حيثما استطاع أن يحقق حداً أدنى لتمثل الأشياء وعلاقتها المادية تمثلاً ذهنياً وبشكل « واقعي » ، أي حينما استطاع تحقيق حد أدنى من التبيؤ العملي و « الذهني » مع محيطه المادي .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار النتائج والانعكاسات الذهنية لعملية التبيؤ هذه في رأس الانسان البدائي ، فربما ستظهر لنا غامضة ، أسرارية . بيد ان الدافع الى ذلك - وهنا تكمن العقدة - هو رد الفعل الانساني الهادف والواعي قليلاً او كثيراً على المحيط المادي الخارجي ، الذي يستثير ،

بالاصل ، رد الفعل ذلك .

ان هذه المسألة تكتسب بعدها واطارها العلمي والفلسفي ، حيثما تستوعب وتفهم بعلاقتها مع الواقع التاريخي التالي ، وهو أنه مع نشوء الانسان كفرد الفعل الجسمي عن ان يكتسب الدور الحاسم في عملية التبيؤ الانساني مع المحيط المادي الخارجي . فردود الفعل الاكثر بدائية وعفوية « لانسان » عصر التوحش ، لم يكن لها ان تبرز ، من حيث هي ردود فعل انسانية ، دون هدفية واعية الى درجة ما . ذلك لان « العفوية » في سلوك وذهنية البدائي كانت ، مع تطوير وتحسين تكتيك العمل والاحرف الصوتية ، تترد شيئا فشيئا الى وراء . ولذا كانت عملية تعميق وتطوير « الهدفية الواعية » في سلوك وذهنية الانسان متلازمة عضويا مع عملية تعميق الحرية الانسانية تجاه المحيط المادي ، وبالتالي تجسيدا ذهنيا جدليا حيا لمستوى وطابع التكتيك ( الآلات الخشبية والحجرية والعظمية الخ . . ) المستخدم من قبل الانسان البدائي .

هكذا نرى ان الفكر الفلسفي المادي يستمد وجوده الاصلي من الموقف الطبيعي الذي يجد الانسان نفسه مرفعا على أخذه تجاه العالم المادي المحيط . بالرغم من ان هذا الموقف ، بحد ذاته ، لا يؤدي الى تكوين فكر فلسفي متميز . بيد ان ذلك الموقف الطبيعي كان ولا يزال احد الاسلحة الماضية في يد الفكر المادي ضد المثالية وضد « الغيبية » بكل اشكالها .

لذا فان معيار حقيقة السؤال : ايهما تكون قبل ، الميل المادي ام الميل المثالي ، يكمن في الاجابة على السؤال التالي : ماهي السمة الجوهرية للانسان ، من حيث هو كذلك لا ونحن نعلم ، حسبما سبق ، ان هذه السمة تكمن في كونه ( اي الانسان ) كائنا فعلا عاملا ، في كونه يقف من العالم المادي موقفا واقعيا realistic (1) من خلال تكتيك العمل . لقد كان على الانسان منذ « البدء » أن يعمل و « يفكر » واقعيا . بالطبع لا يجوز فهم هذا « البدء » بشكل لا تاريخي ولا جدلي . فان يكون الانسان قد عمل وفكر منذ البدء واقعيا ، لا يعني ان هذا يفهم بالضرورة على اساس الانعكاس الذهني للعمل الانساني الانتاجي ، بل على اساس « الدافع » المحرك لفعل الانسان ولتفكيره . اما هذا الدافع المحرك فهو ضرورة التبيؤ الطبيعي بهدف حفظ واستمرار الحياة .

realistisch (1)

بيد أن ذلك يتضمن تناقضا بين النظرية والممارسة ، بين العمل المتحقق بدافع حياتي ضروري ( التبيؤ الطبيعي الاجتماعي ) وبين انعكاسه الذهني . و الحقيقة ، هذا التناقض يمكن فهمه وتبريره علي أساس أن ليس هنالك أصلا وحدة ( هوية ) مطلقة بين الفكر والممارسة العملية . ومن الضروري جدا أخذ ذلك التناقض بعين الاعتبار ، اذا أردنا دراسة وتفحص « المادية » و « المثالية » في نشوئهما وتطورهما .

### التمييز بين الهيمنة والتقدمية التاريخية ، بين حقيقة الاسطورة ومشروعيتها التاريخية .

الى جانب ذلك تظهر لنا دراسة ذلك التناقض أهمية التمييز بين ناحيتين ، الاولى هي « الهيمنة أو السيادة » والاخرى هي « التقدمية التاريخية » . ففي اطار الممارسة العملية و « الفكر » كان الميل الواقعي ضمن الاسطورة في آن واحد مهيمنا وتقدما ، ذلك انه قد ساهم ، في اطار الامكانات المعطاة ، في توجيه الانسان البدائي الى عالمه المادي الحقيقي وليس الوهمي ، وبالتالي في تطوير عملية المعرفة الانسانية . وبهذا المعنى فقد كان ( الميل ذاك ) ، آخذين بعين الاعتبار الاطار التاريخي الذي احتواه ، في نفس الوقت صحيحا معرفيا ومشروعا من الناحية التاريخية والاجتماعية .

بيد انه مع تعمق « وعي » العجز الانساني وتعمق انحراف الخيال Imagination (١) والمعرفة عن الواقع الطبيعي والاجتماعي ، أخذ الميل المادي يخسر من هيمنته اكثر فاكثر .

ان هذا الوضع الجديد انطلق في نموه في وقت اخذت فيه الأديان الاولى تتكون وتتلور - تقريبا في المجموعات القبلية - . في هذه المرحلة نجد أن طرفي النزاع : الميل المادي والميل المثالي ، يبلغان مستوى متعادلا في الهيمنة والسيادة في المستوى الذهني ( النظري ) . هنا تبرز مسالتان ينبغي التاكيد عليهما : ١ - ان الممارسة الانتاجية المباشرة للانسان ظلت تشكل دعامة أساسية وقوية للميل المادي ( الواقعي ) ٢٠ - لم يتغير شيء جوهرى بخصوص « حقيقة » الميل المثالي . فقد بقي هذا انعكاسا وهميا للعالم المادي ، بالرغم من انه ظل مشروعا ، من حيث الاطار التاريخي .

كما يبرز لنا هذا حقيقة اخرى ، وهي أن طرفي النزاع المشار اليهما ،

---

Phantasic (1)

منظورا اليهما بالنسبة الى نزاعهما على المستويين النظري والعملي ، لم يتعادلا . ذلك لان الميل المادي ( الواقعي ) احتفظ ، بشكل عام ، بالهيمنة والتقدمية في توجيه الانسان البدائي .

من هنا نستطيع اكتشاف خطأ الرأي القائل بان الميل المادي والمثالي ( اللاواقعي ) كانا متحدين بشكل وثيق في الاسطورة ، بحيث ينتهي حينئذ القول بوجود تمايز معين بينهما(١) .

ان فهما تاريخيا جدليا للاسطورة يتنافى مع النظر الى تاريخها من حيث هو تاريخ اوهام وضلالات ذهنية بدائية ومن حيث هو بعيد عن عملية نمو حقيقي معقد للمعرفة الانسانية(٢) .

### **وجود العالم المادي الموضوعي وانعكاسه الواعي وعوامل تكون هذا الانعكاس .**

في مجمل تاريخ الاسطورة تكونت لدى الناس البدائيين ، وان كان بشكل غامض ومن خلال الموقف العملي اليومي المباشر ، حقيقة جوهرية ، هي ان للاشياء الطبيعية ، كالأشجار والأحجار والماء والمطر ، التي لهم ( للناس ) بها علاقة يومية مباشرة ، وجودها المستقل عن وجودهم وخارجا عنه . بالطبع ، اذا كانت هذه الحقيقة غامضة لدى اولئك الناس البدائيين ، وان تكن قد برزت لديهم بشكل اساسي من خلال ممارستهم العملية اليومية التلقائية والبسيطة ، فان هذا لا يؤدي الى انكار وجودها .

لقد ساهم في ابراز وترسيخ تلك الحقيقة في ذهن انسان المجموعات

---

(١) في هذا الاتجاه يكتب مثلاً ر. جارودي : « في عصر لم توجد فيه العبودية بعد ومعها تقسيم المجتمع الى طبقات متعادلة لا يزال الدين والعلم ، المثالية والمادية ملتحمين في الاسطورة ، ولا يوجدان بعد في تناقض مع بعضهما . . . » ( ر. جارودي : الحرية كمثولة فلسفية وتاريخية ، برلين ١٩٥٩ ، ص ٢٤ ) .

(٢) ان اللاعقلاني الفرنسي « غوستاف لوبون » يرى التطور التاريخي عبارة عن تطور « الوجدية الوهمية » ، بحيث يطرح كل عنصر عقلاني في التاريخ جانبا . انه يكتب : « وتقوم الوجدية على الخضوع لاهام بالغة من القوة ما تغفلت معه من سلطان العقل ، وتاريخ البشرية هو تاريخ هذه الاهام على الخصوص ، وتنمو الامة اذا ما حازت اوهاما دينية او سياسية قادرة على تحريك جهودها . . . » ( غوستاف لوبون : فلسفة التاريخ ، الطبعة العربية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٤ ، ص ١٢٢ ) .

البدائية عاملان أساسيان ، هما الممارسة الانتاجية اليومية، وظاهرة الموت . فالانسان ذلك كان متوجها عليه ( كما هو الحال أيضا بالنسبة الى انسان عصرنا وكما سيبقى الامر هذا في المستقبل ) بضرورة طبيعية ان ينفذ الى العالم المادي المحيط بكثير أو قليل من العمق والدقة . كان يتوجب عليه ان يرتبط به بشكل أو آخر ، ان يمتلكه ويحوّله بقدر ما الى ينبوع لحياته المحدودة . بيد ان ذلك العالم المادي لم يكن عديم المقاومة تلقاء السلاح « اي أدوات العمل » المشهر في وجهه من قبل الانسان البدائي .

لقد كان على الانسان ان يكتشف ابعاد هذا العالم ، أي « قانونيته الخاصة » ، من خلال عملية طويلة ومعقدة . على هذا الطريق الشائك كانت أدوات العمل ، الآخذة بالتطور كما وكيفاً ، وقدرة التفكير التناسمية شيئاً فشيئاً تشكلان المحرك الاساسي .

في مجرى هذه العملية دخل في ذهنية الانسان البدائي تحول جديد ، كمن في الانتقال من مفهوم المحيط Environment (١) الى مفهوم العالم World (٢) ، وذلك لان الانسان هذا تجاوز الأفق الضيق المحدد من خلال بنية مجموعته البشرية الموجود بينها ، والتي هي بدورها ذات أفق محدد : فمجموعته البشرية هذه ، التي كونت محيط كل عضو فيها ، تضمنت اتجاه تحولها الى مجموعة مؤلفة من عدة عشائر ، وذلك بالعلاقة مع عملية التحول والتطور الاقتصادي ، التي طرأت على المجتمع البدائي .

اما ظاهرة الموت فقد ساهمت في تكوين وتعميق الحس بموضوعية العالم المادي الخارجي في ذهن الانسان البدائي ، حيث كان هذا الاخير مضطراً - بطبيعة حياته اليومية - الى المقارنة المباشرة والموازنة الحسية بين ظاهرتين ، هما الموضوع غير المتحرك والجامد « الذي لا يتلاشى ولا يذهب هباءً » من طرف أول ، والقوة ، أو الروح التي تدخل مع الموت في حالة سكون وانعدام من طرف آخر . وبالرغم من أن أفراد المجموعات البدائية كانوا ملتصقين بالمحيط المادي المعطى التصاقاً قويا وعلى نحو مباشر ، فان ذلك لم يؤد بهم الى اعتبار وجود المحيط مرهونا بوجودهم .

ان فهم هذا ينطلق ، كما أسلفنا ، من مبررات وشروط عملية . فالتقاطب بين الوعي والعالم ، الذي تبلور وتطور الى جانب ومن خلال نشوء

---

Umwelt (١)      Welt (٢)

وتطور تقسيم العمل الانساني الى واحد فكري وآخر يدوي (جسدي) في المجتمع الجديد الطبقي ، لم يصبح بإمكانه تجاوز الوضع السابق ( أي الاقرار العملي والذهني المباشر بموضوعية العالم الخارجي) الا حيث فصلت الفعالية الذهنية الفكرية عن الفعالية العملية المباشرة . وبطبيعة الحال فقد كان ذلك «التقاطب» خطوة هامة وضرورية على طريق التوصل الى «المفهوم» المجرد « عن العالم المادي ، هذا المفهوم الذي يبقى بالرغم من تجريديته ملتصقا ب « جوهر » العالم المادي . كما أن « القوى » ، التي اعتبرت « أرواح » الظواهر الطبيعية ، نظرت اليها باعتبارها ذاتية هذه الظواهر . فالروح ، بهذا المعنى ، اكتسبت اطارا ماديا طبيعيا ، بحيث اعتبرت جزءا من العالم المادي : انها احيائية بدائية ، ولكن ضمن حس ورؤية واقعيين ( ماديين ) .

ان هذا التصور الأولي حول ترويح ( من الروح ) شامل للظواهر الطبيعية لدى الانسان البدائي يمكن اخذها على انها الاصل السحيق للمبدأ العلمي الخاص « بالحركة الذاتية » لهذه الظواهر . وهذا على الرغم من الصورة « الاسطورية » التي اكتسبها ذلك التصور البدائي .

★ ★ ★

ان الميل الواقعي ( المادي ) اكثر اصالة وقدماء من الميل اللاواقعي ( المثالي ) في التاريخ الفكري الانساني ، وذلك باعتبار ان نشاطية الانتاج للانسان الاجتماعي تنفي ، في الاصل ، كل انحراف لا واقعي ، ومن طرف آخر باعتبار ان الدوافع والبواعث المباشرة لهذه النشاطية تمارس في دماغ الانسان البدائي توجيها واقعي .

وبطبيعة الحال ، فنحن حين تكلمنا عن ميل « مادي » ضمن الاسطورة البدائية ، فاننا لا نعني بذلك سوى الاصل الطبيعي لما سوف ينشأ لاحقا من اتجاه « فلسفي » خاص ومتميز .

ان هوية ، او وحدة مطلقة بين الوعي الانساني والعالم المادي لم توجد ، ولم يكن لها ان توجد . وانه ، في الحقيقة ، لخطا فاحش ان ننطلق من أن الانسان ، حتى في أدنى مراحل تطوره « لم يعرف أي تناقض بين نفسه وبين محيطه الطبيعي » (١) .

(١) Arthur Drews : تاريخ الاحادية Monismus في العصر القديم ،

هايدلبرغ ١٩١٣ ، اصدار المكتبة الجامعية لكارل ونتر ، ص ١ .

لاشك ان الانسان البدائي قد تعرف على العالم المادي المحيط وتلمسه في حياته المباشرة كعالم واحد . ولكن الكثرة ، كثرة الظواهرات في العالم هذا ، انعكست أيضا في التفهم العملي للانسان ذاك . اما حقيقة هذا القول ، فانها تكمن في الموقف العملي الواقعي للانسان تجاه عالمه الخارجي المحيط . ذلك لان المباشرة الخاصة بوعيه بالنسبة الى العالم الخارجي ذاك هي ، في نفس الآن ، تدييت - من الذات - ، وتوضيح - من الموضوع - له ، أي لوعيه ، وليس الواحد دون الآخر ، اي ليس تدييتا دون توضيح ، والعكس .

اما العام والمفرد Individual (١) ، والوحدة والكثرة ، والهوية والتناقض ، فان هذه جميعا قد اكتسبت ترسانات أصيلة ( أولية ) في الوعي الانساني ، وذلك من خلال وحدة عميقة كثيرا أو قليلا تجمع بين الواحدة والأخرى . وبالطبع هذه الحقيقة لا تفقد شيئا من واقعها ومفعولها حين نعلم أن التطور النظري المعرفي اللاحق قد نحا باتجاه تعميق فعالية التعميم والتجريد لدى الانسان .

ولقد فهم وعومل العالم المادي كشيء جسمي . اما الذهني ( الوضع الذهني ) فقد تملك خاصيته في نظر ذلك الانسان في الجسمي نفسه . ولذلك نستطيع الافتراض بأن التقسيم الدقيق اللاحق للعالم أو الوجود الى « مادي » والى « فكري » قد اكتسب أصوله الأولية من الواقع ذاك البدائي (٢) .

ان الانسان البدائي قد استوعب العالم المادي في عموميته المحسوسة . ولقد تضمنت عملية الاستيعاب هذه اتجاهها للتجريد . وهو ( أي الانسان ) قد تعلم ، ببطء ومدفوعا من حاجاته الحياتية الأولية ، أن استنبات وتعميق عملية التجريد الذهني من العوامل الجوهرية لحفظ وتطوير نفسه .

★ ★ ★

ونحن اذ حاولنا ، فيما سبق ، معالجة العلاقة بين الواقعية ( المادية ) والاسطورة من جهة ، واللاواقعية ( المثالية ) والاسطورة من جهة أخرى لدى المجموعات الانسانية البدائية ، فاننا نرى نفسنا قد توصلنا ، على ضوء

(١) Einzelnes

(٢) قارن هذا بكتاب S. Luria : بدايات فكر يوناني ، دار نشر الاكاديمية ، برلين

١٩٦٣ ، ص ١٣ .



ذلك ، الى نتيجة أساسية تتعلق بالتصور حول « المادة » أو العالم المادي لدى المجموعات تلك . ان هذه النتيجة تقوم على أن التصور Notion (١) ذلك في وعي الانسان البدائي لم يتعد حسية هذا الوعي وعيانية الظواهر المادية . ان هذا التصور ، الذي لبي وعكس المتطلبات الحيوية لكفاح الانسان مع الطبيعة ، حقق ، مع نشوء وتطور اتحاد جديد من قبائل عدة ، قفزة جديدة هامة كمنت في التحول من « تصور المحيط » الى « تصور العالم » .

اما معرفة « العام » في تجريده فلم تجتز آنذاك الا تطورا ضئيلا . وقد كان على الوحدة ( الهوية ) الاصلية النسبية بين الانسان والعالم الخارجي أن ترغم شيئا فشيئا على التراجع ، وبالتالي على السماح للانشطار والتناقض بالبروز بشكل أعمق . ونحن نرى من وراء ذلك عاملين ، هما تطور مستوى شروط العمل الانساني ، وتطور وتكامل القدرة على التفكير المجرد . وبالطبع ، فكما أننا غير قادرين أبدا على التكلم عن وحدة « مطلقة » بين الانسان والعالم المادي ، فاننا أيضا غير قادرين أبدا على التكلم عن ثنائية « مطلقة » بين الانسان والعالم المادي .

وإذن فقد توجب انقضاء فترات تاريخية كاملة ، حتى استطاع الانسان رؤية العالم ذاك واستيعابه بشكل مفهومي واع في تناقضاته الحقيقية ووحدته المجردة .

وأخيرا نرى من الضروري الإشارة الى أن البحث عن أصول أولية للفكر الفلسفي المادي والمثالي في « أسطورة » الانسان البدائي لا يعني أننا نجد ذلك الفكر في هذه الاسطورة . ذلك لأن تفكيرا فلسفيا أخذ في التكون والتطور ، حيث انقسم العمل الانساني الى واحد فكري وآخر يدوي ( جسدي ) في المجتمع الطبقي الجديد ، الذي قام على انقراض المجموعات الانسانية البدائية .

أما الذي استطعنا تفصيله في « الاسطورة » تلك ورسم ملامحه الأولى البعيدة ، فهو فترة ما قبل تاريخ الفكر الفلسفي المتميز والمنظم .

---

Vorstellung (1)